

جغرافية البحر الأبيض المتوسط

2. الخصائص البشرية لدول حوض البحر الأبيض المتوسط

يفسر التنوع الذي يطبع المجال المتوسطي الظرفية الحالية لهذا المجال، بمعنى تقاسم المجال بين شعوب غنية وأخرى فقيرة، شعوب تعرف نموا ديمغرافيا قويا وأخرى تعرف شيخوخة مقلقة، وتترجم هذه الاختلافات بالامتداد المجالي للمجموعات الأكثر دينامية اقتصاديا، وقد تم التعبير عن هذه الدينامية فيما قبل بانتشار الإمبريالية الأوروبية، وهي تترجم حاليا بحركات هجرية كبيرة ذات اتجاه جنوبي شمالي، ومبادلات أو حروب مفتوحة أو كامنة ما فتئت تعارض شعوبا متجاورة، ويمكن أن نشير إلى:

- انخراط المجال المتوسطي في الحربين العالميتين؛
- عمليات تنقيط السكان (الإبادة الجماعية للأرمن)؛
- تفكك يوغوسلافيا السابقة إلى صربيا؛ وكرواتيا؛ وسلوفينيا؛ وألبانيا؛ ومقدونيا؛ والجبل الأسود والبوسنة والهرسك؛
- عمليات إنهاء الاستعمار والمسألة الفلسطينية.

وعموما يعرف حوض البحر الأبيض المتوسط دينامية ديمغرافية متباينة فالضفة الجنوبية والشرقية تتميز باستمرار التزايد الديمغرافي، مقابل تراجعها في الدول الأوروبية المتقدمة للحوض خلال الربع الأخير من القرن العشرين، بل أصبحت هذه الدول مضطرة إلى تدبير نتائج ركود عدد السكان والشيخوخة، بينما الدول الأخرى تواجه نموا قويا ووفرة الشباب.

1.2 الخصائص الديمغرافية لدول حوض البحر الأبيض المتوسط

أثارت المسألة السكانية وتثير اهتمام عدد كبير من الباحثين، خاصة في الجغرافيا وعلم الاجتماع والاقتصاد، وذلك للتفاعل والترابط الكبير بين مختلف القضايا، ديموغرافية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية ...، وقد أصبحت هذه المسألة تشكل موضوع الساعة للتفاوتات التي تعرفها بعض المناطق في العالم، سيما حوض البحر الأبيض المتوسط، ذلك أن دولا أوروبية متوسطية أصبحت مكرهة على تدبير نتائج ركود أعداد السكان والتقدم في السن، بينما دول أخرى تواجه إشكالية زيادة الأعداد ووفرة الشباب. يتضمن البحر الأبيض المتوسط الضفة الشمالية والجنوبية والشرقية، وتمثل هذه المناطق لوحدها مساحة 8,8 مليون كم²، بلغت الساكنة الكلية بدول حوض البحر الأبيض المتوسط 486.379.056 نسمة سنة 2014 أي ما يمثل 6,7 % من ساكنة العالم، مقابل 285.000.000 نسمة سنة 1970، وذلك بزيادة 201.379.056 نسمة في ظرف 44 سنة، وحسب التوقعات الديمغرافية الأخيرة التي أنجزت للمخطط

الأزرق لسنة 2025، فإن عدد سكان دول حوض البحر المتوسط سيبلغ 523.700.000 نسمة، وهذا يعني زيادة بمستوى 96,7 مليون نسمة في ظرف 11 سنة. كما أن الدينامية الديمغرافية لدول جنوب وشرق البحر الأبيض المتوسط عرفت زيادة إجمالية بمستوى 65% بين سنتي 1990 و 2014، بينما لا تتجاوز الزيادة 8% في الشمال.

1.1.2 توزيع غير متجانس للسكان في دول حوض البحر الأبيض

يتوزع السكان في دول حوض البحر الأبيض المتوسط بشكل مختلف، وهو ما يلاحظ من خلال التنوع الكبير على مستوى الحجم المطلق للسكان.

جدول رقم 1: السكان والكثافة السكانية في حوض البحر الأبيض المتوسط سنة 2014

البلد	العاصمة	عدد السكان	المساحة بـ كم ²	الكثافة السكانية
أوروبا		198.639.808	1.754.026	113,2
فرنسا	باريس	66.130.000	643.801	102,7
إيطاليا	روما	60.780.000	301.338	201,7
إسبانيا	مدريد	46.510.000	505.990	91,9
اليونان	أثينا	10.930.000	131.957	82,8
البوسنة والهرسك	سراييفو	3.482.000	51.197	68,0
ألبانيا	تيرانا	2.890.000	28.748	100,5
سلوفينيا	ليوبليانا	2.610.000	20.273	128,7
مالطا	فالييتا	439.691	316	1391,4
كرواتيا	زغرب	4.240.000	56.594	74,9
الجبل الأسود	بودغوريستا	628.117	13.812	45,4
آسيا الغربية		107.128.418	994.665	107,7
قبرص	نيقوسيا	860.000	9.251	92,9
فلسطين	القدس	4.616.418	6.220	742,1
لبنان	بيروت	6.262.000	10.452	599,1
سوريا	دمشق	18.720.000	185.180	101,1
تركيا	أنقرة	76.670.000	783.562	97,8
إفريقيا الشمالية		180.610.830	6.017.460	30,01
المغرب	الرباط	33.848.242	710.850	47,6
الجزائر	الجزائر	38.920.000	2.382.000	16,3
تونس	تونس	11.060.588	163.610	67,6
ليبيا	طرابلس	6.362.000	1.760.000	3,61
مصر	القاهرة	90.420.000	1.001.000	90,3
المجموع		486.379.056	8.766.151	55,4

يظهر انطلاقاً من الجدول أعلاه أن ما يزيد عن 78% من ساكنة حوض البحر الأبيض المتوسط تنتمي لمجموعة الدول الأوروبية وشمال إفريقيا، وعلى المستوى الإقليمي نجد ثلاث دول

صغيرة وهي مالطا والجبل الأسود وقبرص تضم بين 400.000 و 860.000 نسمة، و 10 دول بين 2.610.000 مليون و 18.720.000 مليون نسمة، وثلاثة دول تضم بين تقريبا 34 و 47 مليون نسمة وهي المغرب، الجزائر وإسبانيا، وتعتبر مصر وتركيا وإيطاليا وفرنسا الدول الأكثر سكانا، بحيث تمثل لوحدها 60,4 % من الساكنة الكلية للحوض، ومن المرتقب- باعتبار الديناميات الوطنية للنمو الديمغرافي- أن تصبح الضفة الجنوبية أكثر سكانا.

2.1.2 كثافات جد متنوعة بين دول حوض المتوسط

تتميز الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط بمساحات وكثافات جد مختلفة، حيث تختلف مساحات الدول بشكل كبير، إذ تتراوح بين 316 كم² في مالطا و 2.382.000 كم² في الجزائر، ونجد ثلاث دول تتراوح مساحتها بين 643.801 كم² و 783.562 كم² وهي فرنسا والمغرب وتركيا، ودولتين تمتدان على مساحة تتراوح بين مليون ومليون و 760.000 كم² وهي مصر وليبيا، ولكن تشغل الصحراء والسهوب في عدة بلدان مجالات واسعة كمصر، ليبيا، الجزائر، المغرب.

تعتبر الضفة الجنوبية لأوروبا - بحوالي 200 مليون نسمة- الأكثر تعميرا، وتتبعها الضفة الشمالية الإفريقية بحوالي 181 مليون نسمة، ثم الضفة الغربية لآسيا بحوالي 108 مليون نسمة حسب إحصائيات 2014.

تختلف الكثافات السكانية في دول حوض البحر الأبيض المتوسط بشكل كبير، فهي تتراوح بين 3 وحوالي 48 نسمة/ كم² في ليبيا والجزائر والمغرب لامتداد هذه الدول على مساحات صحراوية واسعة، وتتعدى 200 نسمة/ كم² في إيطاليا، سيما في سهل "البؤ" وملحقاته في الشمال، وتبلغ تقريبا 600 نسمة/ كم² في لبنان، البلد الصغير الذي عوض النقص الحاصل في السكان - بفعل هجرة قديمة إلى الخارج وهجرة حديثة على إثر الحرب الأهلية- باستقبال عدد كبير من الفلسطينيين والسوريين، وتبلغ الكثافة 743 نسمة/ كم² في فلسطين، بل تعدت هذا الرقم في قطاع غزة، وهي ترتبط بنمو ديمغرافي مرتفع، بل الأعلى على مستوى الحوض.

تُخفي الكثافات الوطنية تفاوتات كبيرة، بحيث توجد مناطق تركز كبير للسكان، خاصة في المناطق الساحلية بشكل عام، فهي أكثر تعميرا من المناطق الداخلية، مع بضع استثناءات هامة ومنها الجزء الأكبر من الساحل بين الحدود التونسية الليبية ودلتا النيل. ويشكل وادي النيل والبؤ، وبشكل أقل وادي الرون شرق فرنسا وهي محاور تعمير قوي. وفي هذا الاتجاه نجد توزيع الساكنة المصرية بين مناطق فارغة تقريبا وتكدس مع كثافات قوية بمستوى 1000 نسمة/ كم² على طول النيل. أما الجزائر فتتركز فيها الساكنة في شريط لا يزيد عرضه عن 250 كم يمتد من الساحل في الشمال إلى داخل البلاد، حيث نجد 36 ولاية بها كثافة تزيد عن 20 نسمة/ كم²، وتمثل 11% من المساحة الكلية للبلد أي حوالي 240.000 كم² وتحتضن 87% من الساكنة، وتتركز الساكنة بالخصوص في المدن الكبرى كالجزائر العاصمة

3.154.792 سنة 2015. وأخيرا نلاحظ وجود كثافات قوية نسبيا في جبال الريف مثلا، حيث تزيد عن 100 نسمة/ كم²، والقبائل في الجزائر (200+ نسمة/ كم²)، وبالأخص جبال لبنان بكثافات تزيد عن 400 نسمة / كم². إن التعمير في هذه الجبال قديم، ويرتبط بالبحث عن الأمن والابتعاد عن المناطق المنخفضة الرطبة، ولكن يظهر أن الحمولة البشرية في هذه المناطق مهددة بفعل الحركات الهجرية التي تعرفها منذ النصف الثاني من القرن العشرين. وعلى العكس نجد مناطق أخرى ساحلية ازدادت وتزداد ساكنتها بسرعة بينما كان عدد كبير منها إلى عهد قريب يشكل مناطق طرد، ويعود تزايد سكانها لأسباب متنوعة كالامتداد على أراضي جديدة عن طريق الاستصلاح كسهل الغرب بالمغرب، أو السياحة كما هو الحال في شمال المغرب في تطوان والمضيق والفنيدق وغيرها، أو الصناعة والتحضر كالدار البيضاء الكبرى، وتونس العاصمة، والجزائر العاصمة، وفي الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط نجد التجمع الحضري السياحي لساحل دازور La Côte d'Azur جنوب شرق فرنسا حيث تتعدى الكثافات 300 نسمة / كم²، ومع ذلك تظل ضعيفة مقارنة بدلتا النيل حيث تسجل كثافة قروية تعتبر من أعلى الكثافات في العالم (1000 نسمة/ كم²)¹، نفس الملاحظة بالنسبة لقطاع غزة حيث تناهز الكثافة السكانية 3600 نسمة/كم².

تظل التركزات السكانية في المناطق الأخرى أقل انتشارا وأقل كثافة، بل محدودة مجاليا، إذ ترتبط في معظم الأحيان بمدن كبرى كأثينا، وإسطنبول، ومارسيليا، وبرشلونة، و نابولي، وطرابلس. تقدر الكثافة على السواحل بـ 96 نسمة / كم²: لقد سمح التركيز السكاني على السواحل بانتقال عدد السكان من 95 مليون نسمة سنة 1979 إلى 143 مليون نسمة سنة 2000، ويمكن أن تبلغ 174 مليون نسمة سنة 2025، وإذا كانت الضفة الأوروبية أكثر تعميرا فإن المجال الساحلي في الجنوب يتركز به تقريبا نفس عدد السكان.

تختلف المعطيات قليلا عندما يتعلق الأمر بجميع تراب الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط: ففي الشمال الشرقي يتسع التعمير في تركيا الداخلية، وفي الجنوب على الساحل الأطلسي للمغرب، بينما نسبة كبيرة من ساكنة إسبانيا وفرنسا، مع مدريد وباريس، جد بعيدة عن البحر الأبيض المتوسط. تمتد الصحراء على مساحة هامة من الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، وهي تطل مباشرة على البحر في ليبيا، وتقع على بعد 400 كم من الساحل الجزائري، وتطل على الساحل الجنوبي من المغرب، وعلى الضفة الشمالية من حوض البحر المتوسط فإن نسبة كبيرة من ساكنة إسبانيا، وخاصة فرنسا، جد بعيدة عن البحر الأبيض المتوسط.

¹-FRANCHETTE S., 1997, Le Delta du Nil. Densités et population et urbanisation des campagnes. Centre d'Etudes et de Recherches sur l'Urbanisation du Monde Arabe, URBAMA UMR 65592 du CNRS, Université de Tours, Institut Français de Recherche Scientifique pour le Développement en Coopération ORSTOM, Paris, Fascicule de Recherche n° 32, Tours, p. 3.

تختلف الكثافات الحقيقية الزراعية عن الكثافات الخام²، ويتم حسابها بقسمة عدد السكان على المساحة الصالحة للزراعة والمزروعة بشكل دائم، وهي ترتفع بشكل صاروخي في بعض الحالات على مستوى دول الحوض:

- ففي الجزائر تسجل 17,3 نسمة/ كم² كثافة عامة و372 نسمة/ كم² كثافة زراعية؛
 - وفي تركيا تنتقل من 103.7 نسمة/ كم² إلى 266 نسمة / كم²؛
 - وفي مصر تسجل 97.34 نسمة/ كم² كثافة عامة بينما تتعدى الكثافة الزراعية 2000 نسمة/ كم²³.
- تطرح هذه الكثافات الزراعية المرتفعة إشكالية تحقيق الأمن الغذائي، خاصة في الدول الموجودة على الضفة الجنوبية، سيما مصر حيث الزيادة السكانية مرتفعة والرقعة الزراعية تنحصر في شريط ضيق حول واد النيل.

²- نحصل على الكثافة الخام بقسمة عدد السكان على المساحة العامة للبلد.

³ - Dans la chronique de 2004 portant sur les 50 pays de l'Afrique Sub Saharienne(TABUTIN et SCHOU MAKER, 2004), seules des îles comme la Réunion, Maurice ou le Cap Vert avaient des valeurs comparables.

3.1.2 دينامية ديموغرافية متباينة ببلدان حوض البحر الأبيض المتوسط

تعرف دول حوض البحر الأبيض المتوسط فوارق ديموغرافية كبيرة، وذلك بفعل عاملين أساسيين وهما: الزيادة الطبيعية والهجرة.

جدول رقم 2: معطيات ديموغرافية عن دول حوض البحر الأبيض المتوسط سنة 2014

عدد السكان	معدل الولادات ‰	معدل الوفيات ‰	معدل التزايد الطبيعي ‰ ⁴	معدل النمو الطبيعي %	
198.639.808					أوروبا
66.130.000	11,5	8,40	4,2	0,50	فرنسا
60.780.000	8,60	9,80	-0,16	0,90	إيطاليا
46.510.000	9,40	8,90	0,27	0,30	إسبانيا
10.930.000	8,40	10,40	-0,14	-0,70	اليونان
3.482.000	9,00	10,00	0,16	-1,70	البوسنة والهرسك
2.890.000	11,00	7,40	-0,22	-0,22	ألبانيا
2.610.000	9,80	9,20	0,82	0,10	سلوفينيا
439.691	10,10	7,20	1,30	2,00	مالطا
4.240.000	9,00	3,80	-1,19	-0,40	كرواتيا
628.117	12,20	9,69	0,00	0,10	الجبل الأسود
107.128.418					آسيا الغربية
860.000	11,14	6,90	1,65	0,70	قبرص
4.616.418	30,90	3,5	2,82	2,30	فلسطين
6.262.000	17,6	4,00	4,56	5,89	لبنان
18.720.000	21,70	6,51	-	-3,10	سوريا
76.670.000	4,90	5,43	1,25	1,70	تركيا
180.610.830					إفريقيا الشمالية
33.848.242	18,80	5,14	1,25	1,25	المغرب
38.920.000	25,93	4,44	1,90	2,00	الجزائر
11.060.588	20,00	6,30	1,25	1,00	تونس
6.362.000	20,90	5,10	1,78	0,88	ليبيا
90.420.000	27,80	6,13	2,51	1,96	مصر
486.379.056					المجموع

المصدر: معطيات مستقاة من مصادر متعددة؛ البنك الدولي بالنسبة للمعطيات الخاصة بنمو السكان

❖ تراجع عام للتزايد الطبيعي

ظلت معدلات الوفيات لمدة طويلة منخفضة في الضفة الشمالية مقارنة بالجنوبية، وتميل حاليا إلى الانخفاض في الضفة الجنوبية: من جهة فإن الوفيات تنخفض بسرعة في الضفة الجنوبية والشرقية حيث المعدلات تتراوح بين 3,5% في فلسطين و6,51% في سوريا، بينما شيخوخة الشعوب في الضفة الشمالية تترجم بارتفاع هذه المعدلات التي تتعدى 7% في معظم الدول وتصل إلى 10,40% في اليونان.

إذا استقرت الولادات في مستويات منخفضة على الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط بما أنها لا تتعدى 12,20% الجبل الأسود، فإنها لا تزال تسجل ما يزيد عن 20% في دول على الضفة الجنوبية والشرقية، ومن ضمنها مصر والجزائر وسوريا وليبيا وتونس، بل إنها تتعدى 30% في فلسطين.

أدت الولادات القليلة والوفيات المرتفعة في عدد من الدول على الضفة الشمالية إلى تسجيل زيادات طبيعية جد ضعيفة، بل هناك دول تسجل معدلات سلبية، كما هو الحال بالنسبة لإيطاليا واليونان وألبانيا وكرواتيا، ولولا الرصيد الهجري⁵ الإيجابي لكان النمو الطبيعي في إيطاليا وإسبانيا على سبيل المثال سلبيا، وتعد الهجرة القوية إلى الخارج بحثا عن ظروف عيش أفضل، في اليونان وألبانيا وكرواتيا السبب الرئيسي لضعف معدلات النمو بها، خاصة بالنسبة لألبانيا التي أنهت بالإضافة إلى ذلك مرحلة الانتقال الديمغرافي، وتعتبر مالطا، وهي عبارة عن أرخبيل صغير في البحر الأبيض المتوسط بين صقلية وساحل إفريقيا الشمالية- الدولة الوحيدة في هذه المجموعة التي تسجل معدلا مرتفعا بفعل استتباب التقاليد والدور الكبير للكنيسة⁶، مما يجعلها قريبة من الدول الإسلامية على الضفة الجنوبية والشرقية التي تسجل في معظمها معدلات نمو طبيعي مرتفعة (2,3% في فلسطين على سبيل المثال): فإذا تأثرت ليبيا وسوريا بالأوضاع السياسية غير المستقرة منذ سنة 2011 والتي ترتبط بالربيع العربي، فإن سكان فلسطين يتأثرون بفعل المواجهة مع إسرائيل، بينما ارتفاع النمو الديمغرافي في لبنان يعزى إلى حضور عدد كبير من الفلسطينيين ولجوء السوريين إلى هذا البلد بعد تدهور الأوضاع السياسية سنة 2011 في سوريا، واندلاع الحرب الأهلية التي دفعت بعشرات الآلاف من السوريين، بل الملايين إلى

⁵ - يمثل الرصيد الهجري أو الهجرة الصافية بالنسبة إلى إقليم محدد وفترة معينة الفرق بين الهجرة الوافدة والهجرة النازحة، فما هي الهجرة الوافدة؟ وما هي الهجرة النازحة؟

- الهجرة النازحة: يعني هذا المفهوم بالنسبة إلى إقليم معين هجرة شخص من هذا الإقليم باتجاه الخارج L' Emigration.

- الهجرة الوافدة: يعني هذا المفهوم بالنسبة إلى إقليم معين هجرة شخص من الخارج باتجاه هذا الإقليم L' Immigration.

⁶ - MIOSSEC J- M., 1994, Malte en transition: démographie, économie et gestion de l'espace, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, in Le Carrefour mltais, 1994/71/ pp 199- 216, cf p 3.

النزوح إلى بلدان مجاورة، كمصر ولبنان والأردن وتركيا، أو العبور إلى الضفة الشمالية، وهذا ما يفسر النمو السلبي الذي سجلته سوريا.

❖ انخفاض في معدلات الخصوبة مع تباين حسب الدول

يواكب الزيادة في أعداد السكان انخفاض في معدلات الخصوبة مع إيقاعات سريعة إلى حد ما حسب الدول:

جدول رقم 3: مؤشرات ديمغرافية عن دول حوض البحر الأبيض المتوسط سنة 2014

مؤشر الخصوبة 2014	مؤشر الخصوبة 1970	أمد الحياة سنة 2014	نسبة الأقل من 15 سنة (%)	نسبة الأكثر من 65 سنة (%)	
					أوروبا
1,97	2,50	82,00	13,40	22,60	فرنسا
1,44	2,40	82,30	13,40	22,6	إيطاليا
1,49	2,90	81,70	15,43	17,85	إسبانيا
1,43	2,40	80,70	13,85	20,91	اليونان
1,00	2,70	76,90	13,29	14,83	البوسنة والهرسك
1,51	5,10	78,50	18,05	11,89	ألبانيا
1,36	2,20	78,30	13,32	19,51	سلوفينيا
1,45	2,00	80,60	15,05	18,5	مالطا
1,40	1,80	76,60	14,42	18,23	كرواتيا
1,80	2,70	76 ,60	15,13	14,76	الجبل الأسود
					آسيا الغربية
1,40	2,50	82,05	15,61	11,51	قبرص
4,07	6,00	73,30	38,90	-	فلسطين
2,10	5,00	78,90	24,09	6,78	لبنان
2,55	7,60	71,80	-	-	سوريا
2,11	5,70	75,00	24,68	7,53	تركيا
					إفريقيا الشمالية
2,21	6,70	76,70	28,00	6,40	المغرب
3,03	7,60	77,20	28,4	5,65	الجزائر
2,03	6,40	76,00	23,02	8,20	تونس
2,40	7,90	72,40	-	-	ليبيا
3,34	5,90	72,00	33,00	4,30	مصر

تختلف معدلات الخصوبة على الضفتين الشمالية والجنوبية والشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط ، ففي الضفة الشمالية كانت معدلات الخصوبة سابقا منخفضة في السبعينات من القرن الماضي (باستثناء ألبانيا) مقارنة بالدول على الضفة الجنوبية والشرقية حيث أن أدنى معدل سجل في لبنان (5 أطفال/ امرأة)، وسجل أعلاه في الجزائر وسوريا وليبيا وهو 7,9 أطفال/ امرأة. ورغم أن جميع الدول عرفت انخفاضا في الخصوبة فيما بعد، لكن ظلت المعدلات مرتفعة على الضفة الجنوبية والشرقية مقارنة بمثيلاتها على الضفة الشمالية لأنها، أي الدول على الضفة الجنوبية والشرقية، في قلب المرحلة الثانية من الانتقال الديمغرافي⁷ حيث تتراجع الولادات بسرعة تفوق الوفيات⁸، بينما دول على الضفة الشمالية كفرنسا وإيطاليا وإسبانيا مثلا قريبة من أن تنتهي هذه المرحلة.

لقد أدت محاربة عدد كبير من الفيروسات والأمراض في أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر، كما أدى صنع المضادات الحيوية وأدوية مضادة للبكتيريا، والتحسين على مستوى النظافة والتغذية إلى التقليل من الوفيات، وسيسرع الاستعمال الواسع لموانع الحمل، وارتفاع سن الأمومة في التقليل من الولادات غير المرغوب فيها، وهناك من يربط هذا الانخفاض أيضا بعدم الاستقرار في المهنة، وميول النساء والرجال عن الزواج⁹، بالإضافة إلى الرغبة في ضمان ظروف عيش أفضل للأطفال، والصعوبات التي تجدها النساء في هذه الدول في التوفيق بين الأمومة والنشاط المهني، والتحول الذي طرأ على مستوى العقليات بحيث أن الأفراد في هذه المجتمعات أصبحوا يميلون إلى الفردانية والتمسك بالحرية ويرون أن وجود الأطفال يقيد الحياة ويتطلب الكثير من الميزانية، ويبدو أيضا أن الأزمة الاقتصادية لسنة 2008 خلفت آثارا عميقة على سكان الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط بحيث أدت إلى انخفاض المداخل، وقد كان ذلك سببا في التقليل من الرغبة في الولادة بالنسبة لعدد كبير من الأسر.

أما الدول على الضفة الجنوبية والشرقية فنميز فيها لبنان وتونس اللتين عرفتا مبكرا تراجعاً واضحاً للخصوبة لأنهما عملتا على تنظيم النسل قبل الدول الأخرى: فلبنان جد متشعبة بالنمط الغربي

⁷ - **الانتقال الديمغرافي:** المرور من نظام تقليدي حيث الوفيات والخصوبة الطبيعية مرتفعة إلى نظام ديمغرافي عصري حيث الوفيات والولادات منخفضة. إن جميع الدول معنية بهذه الظاهرة، وقد بدأ المسلسل في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر، وانتقل إلى بقية دول العالم في الخمسينات من القرن الماضي، وهو يتم على مرحلتين:
- في المرحلة الأولى - التي انتهت في معظم الدول- تتراجع الوفيات فقط بينما تظل الولادات مرتفعة في مستوى قريب من الحد الأقصى الطبيعي، ويصبح النمو سريعا؛
- وفي المرحلة الثانية، فإن التحول يخص أيضا الخصوبة، يقل خلالها معدل الولادات ويقترب من معدل الوفيات ويتراجع النمو إلى أن يختفي، ويمتد هذا الانتقال على مرحلة تختلف من دولة لأخرى: فقد كان بطيئا في الدول الأوروبية الأولى المعنية بالظاهرة، ولكن يظهر بأنه جد سريع في الدول التي عرفت الظاهرة حديثا، امتد النمو في المرحلة الأولى على قرن من الزمن أو أكثر وكان معتدلا، ولكن في المرحلة الثانية فإنه لم يدم سوى بضع عشرات ولكنها تكتسي في معظم الأحيان خاصية مفرطة.

⁸ - DUMONT G-F., 2005, Les populations du monde, éd. Armand Colin, Paris.

⁹ - OCDE, 2011.

الذي أثر فيها كثيرا مع حضور المسيحيين، لكن حضور الفلسطينيين والسوريين – الذين يتزوجون في سن مبكر- يؤثر على ارتفاع الخصوبة. أما تونس فعرفت حملة التنظيم العائلي وتحديد النسل منذ الاستقلال، وعرف المغرب بدوره تحولا بفضل حملات تنظيم الأسرة، وتعليم الفتاة، ودخول المرأة ميدان العمل، والتوعية الصحية، والتحضر السريع، وارتفاع المداخيل الذي يسمح للأشخاص، بالأخص الذين ينتمون للطبقات الفقيرة، بأن يحصلوا على سكن ويعتنوا بأنفسهم وأطفالهم بشكل أفضل، مما أدى إلى تراجع كبير للخصوبة في أقل من 30 سنة بينما تطلب ذلك 200 سنة في فرنسا حيث انتقل معدل الخصوبة من ما يزيد عن 6 أطفال في القرن 18 إلى حوالي طفلين / امرأة في الثلاثينات من القرن الماضي وأقل فيما بعد. أما مصر فكانت أول دولة عربية تجرأت على إدخال تنظيم الأسرة رسميا، وذلك في الستينات من القرن الماضي، إلا أنها حصرتها في المستشفيات، مما يفسر استمرار ارتفاع الخصوبة، ويمكن تفسير المعدلين المنخفضين في ليبيا وسوريا بالأوضاع غير المستقرة التي تعرفها منذ بضع سنوات. أما الجزائر، فبدأت فيها الخصوبة في الارتفاع بعد تراجع كبير إلى حدود سنة 2000، وذلك بسبب إقبال كبير على الزواج، وانخفاض خفيف في استعمال موانع الحمل، وإنجاز مشاريع سكنية، وتظل فلسطين الوحيدة التي حافظت على معدل خصوبة جد مرتفع لأسباب عديدة لعل أبرزها استعمال الديمغرافيا كسلاح لمقاومة العدوان الإسرائيلي، وانتشار الزواج المبكر.

يعتبر سن أول زواج للنساء مؤشرا عن الخصوبة في الدول العربية لأن هذه الأخيرة تعرف ولادات قليلة خارج الزواج، وقد ارتفع هذا السن على العموم في جميع الدول لأن الأسر ترى أن الزواج يفترض التوفر على سكن. ففي سنة 2014 سجل سن أول زواج للنساء في فلسطين 24 سنة ومعدل الخصوبة 4,07 بينما في كل من إيطاليا وإسبانيا فاق 32 سنة.

❖ انعكاسات تراجع الخصوبة على ضفتي البحر الأبيض المتوسط

تساهم استمرارية الخصوبة جد المنخفضة في الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط (أقل من عتبة تجديد الأجيال وهي 2,1 طفل/امرأة)، وطول أمد الحياة¹⁰ في تراجع نسبة النشيطين وتسريع الشيخوخة، فقد ارتفعت نسبة الذين يتجاوزون 65 سنة في فرنسا وإيطاليا إلى 22,60% بينما الأقل من 15 سنة لا يمثلون سوى 13,40%، وخلال العشرية الأخيرة تم تعويض انعدام التوازنات هذا جزئيا بالهجرة من الخارج، وهي تقدم خصائص ديمغرافية مختلفة بحيث تتضمن نسبة عالية من الشباب، مما يسهم في تباطؤ الانخفاض السريع للخصوبة ومسلسل شيخوخة السكان ككل، خاصة في إيطاليا التي

¹⁰ - أمد الحياة عند الولادة l'espérance de vie à la naissance: مؤشر يقيس متوسط سنوات الحياة بالنسبة لمجموعة من السكان الذين ولدوا في نفس السنة إذا ما ظلت الوفيات في كل سنة ثابتة، ويقاس أيضا جودة الحياة الكلية في بلد ما، يمكن أيضا أن يعتبر كمؤشر لمردودية الاستثمار في العنصر البشري.

تسجل ثاني أعلى نسبة للمسنين بالنسبة للشباب في العالم بعد اليابان (168,7 مسن/ 100 شاب)¹¹، كما أن 57% من سكانها سنة 2017 لهم أكثر من 40 سنة، وترتبط النسب المنخفضة للفئتين السالفتين الذكر بدول ككرواتيا ومالطا وسلوفينيا مثلا بتراجع عدد سكانها بسرعة كبيرة بفعل معدلات خصوبة جد منخفضة ترافقها هجرات قوية للأدمغة واليد العاملة.

تطرح الخصوبة الضعيفة وارتفاع نسبة المسنين، كما يطرح ارتفاع أمد الحياة في بعض الدول المتوسطة الأوروبية، كفرنسا وإسبانيا وإيطاليا، إشكاليات كثيرة: فالحضانات والمدارس بدأت تغلق أبوابها، كما أن الساكنة الشابة النشيطة والقادرة على الإنجاب تصبح أقل عددا، مما ينعكس سلبا على المردودية الاقتصادية، وهي تحاول حل هذه المشكلة جزئيا بتحفيز الكفاءات على الاستقرار بها، يقل الطلب على السكن هو الآخر نظرا لتراجع عدد الأسر، أضف إلى ذلك ارتفاع عبء الميزانية التي يمثلها التقاعد بالنسبة للدول، وإشكالية الحماية الطبية والاجتماعية للفئات المسنة (65 فما فوق) التي ارتفعت نسبتها بشكل كبير، بحيث بلغت 22.60% في كل من فرنسا وإيطاليا بينما لا تتعدى 8,2% في شمال إفريقيا والشرق الأوسط، بل إن خمسة دول تسجل أعلى أمد حياة عند الولادة (أكثر من 80 سنة)، وهي إيطاليا وفرنسا وإسبانيا واليونان ومالطا. أما الدول الجنوبية والشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط، فتطرح فيها المشاكل بشكل مختلف: فإذا ظلت نسبة المسنين منخفضة على العموم، فإنه عليها أن تهتم بتدبير حضور نسبة هامة من الشباب، وذلك بتوفير الشغل ومختلف الخدمات الاجتماعية والاقتصادية من سكن، وصحة، وتعليم، وغذاء وربط بالماء والكهرباء...، وهي صعوبات قد تتفاقم مع رصيد هجري¹² مرتفع كما يحدث في لبنان ومصر مع الأزمة السورية. تعتبر البطالة أكبر المشاكل في هذه المجموعة من الدول، ويتم حلها جزئيا بواسطة قطاع غير مهيكّل يحتضن آلاف، بل ملايين الأشخاص بدون عمل

2.2 تسارع ظاهرة التمدين في ضفتي المتوسط

يعيش معظم السكان في جميع الدول المتوسطة حاليا في المدن تقريبا: المغرب 60,3% سنة 2014 بعد أن كان 29,1% سنة 1960؛ أما إسبانيا فيرتفع فيها معدل التحضر إلى 79,3% سنة 2015 بعد أن كان 57,5 سنة 1960¹³.

وبذلك تعرف الدول المتوسطة تزايدا مطردا في عدد الوحدات الحضرية، كما تشهد نموا حضريا كبيرا لدرجة أنه أصبح يشكل انشغالا كبيرا لجميع دول الحوض المتوسطي. إلا أن الإشكالية تطرح بشكل مختلف بين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية والشرقية: فإذا كان التحضر القوي في الضفة الشمالية يؤدي

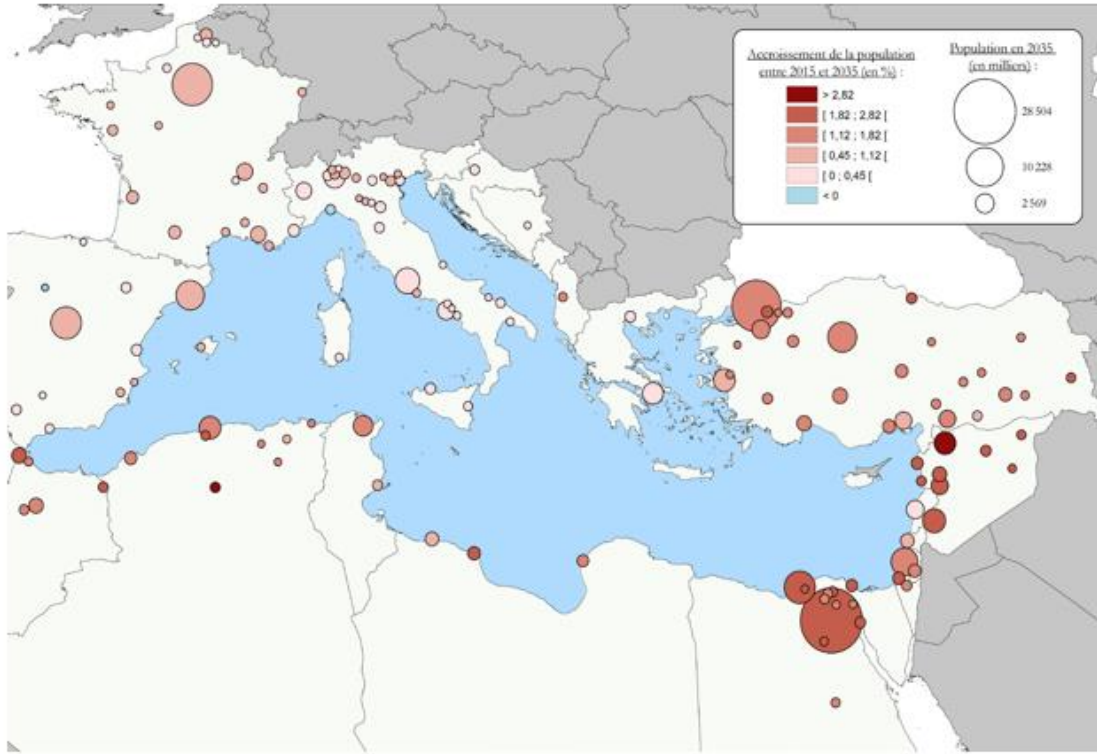
¹¹ - Démographie de l' Italie- wikipédia. W <https://fr.m.wikipedia.org>>D....

¹³ - Perspective.usherbrooke.ca>servlet

Espagne- Population uraine(% de la population totale)IStatistiques&نسش

إلى تزايد مسافة التنقلات بوسائل النقل وارتفاع حجم النفايات المنزلية، فإن الضفة الجنوبية والشرقية تعاني من إشكاليات عديدة كالبطالة، وتضاعف السكن غير اللائق، وضعف البنيات التحتية، والتوسع الحضري على حساب الأراضي الفلاحية...إلخ.

خريطة : أهم التجمعات الحضرية بدول حوض البحر الأبيض المتوسط نسبة النمو 2015- 2035



المصدر : Doignon y. (2019) World Urbanisation prospects 2018

تشهد المدن في جنوب البحر الأبيض المتوسط منذ عدة سنوات تراجعاً في تركيبها السكانية، مما يسمح لها بذلك التحول نحو سياسات تنمية حضرية وتجهيزات أكثر طموحاً، مما يسمح بالحق بركب مدن الدول المتقدمة في شمال البحر الأبيض المتوسط (فرنسا، إيطاليا، إسبانيا).

3.2 تعتبر الهجرة من أهم القضايا والتحديات تواجه دول حوض المتوسط

1.3.2 تيارات الهجرة في حوض البحر الأبيض المتوسط

ارتبطت الهجرة في حوض البحر الأبيض المتوسط بالفقر والحاجة إلى العمل، الشيء الذي أدى تاريخياً إلى نزوح آلاف بل ملايين الإيطاليين والإسبان وبعد ذلك البرتغاليين إلى دول ذات اقتصاد دينامي، ومنها فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، كما ارتبطت الهجرة بتاريخ الحماية والاستعمار، وقد أدت إلى تدفقات هجرية مغاربية إلى فرنسا، ثم بعد ذلك إلى بلجيكا وألمانيا وإسبانيا....، بالإضافة إلى تدفقات مصرية إلى المملكة المتحدة، وقد عملت تنمية إيطاليا وإسبانيا على تحويل هذين البلدين إلى منفذين رئيسيين بالنسبة للمهاجرين الجدد من الضفة الجنوبية من مصر إلى المغرب، إلى حين الإغلاق أوروبا

لحدودها أمام الصدمة البترولية الأولى والمشاكل الداخلية الصعبة كالبطالة، نمو العنصرية، الخوف من الأجانب، وصعوبات الاندماج، وفي بعض الأحيان أزمة الهوية مع عولمة الاقتصاد. وهكذا وضعت هذه الدول سياسات لمراقبة تيارات الهجرة في الإطار الوطني وبين الحكومات (اتفاقية شنغن¹⁴ سنة 1985، اتفاقيات دوبلان حول طلب اللجوء السياسي¹⁵)، وأصبح على إثر ذلك الدخول إلى الاتحاد الأوروبي صعبا بالنسبة للمهاجرين الجدد من الجنوب، بما في ذلك اللاجئين، بينما مجالات حرية المرور بين الدول الأكثر تقدما، وحركية المرور الدولي للأوروبيين، خاصة في إطار السياحة في البحر الأبيض المتوسط، تسير في اتجاه سيولة متزايدة بشكل مستمر، ويتم حاليا تشديد الأنظمة الوطنية والجهوية من أجل التحكم ومراقبة تدفقات الهجرة، وتراجع حق اللجوء السياسي.

تطرح هجرات طالبي اللجوء السياسي والباحثين عن العمل أسئلة كبيرة على السلطات الأوروبية، كما تطرح أسئلة كبيرة على مستوى الأخلاق، بحيث تشير الصحافة بانتظام إلى الرحلات الدرامية للبوأخر المحملة بمئات المهاجرين السريين والتي ترسو بشكل إرادي على سواحل الضفة الشمالية أو تغرق بدون أي شاهد، وقد بلغ عدد الذين ماتوا في البحر الأبيض المتوسط من سنة 2014 إلى سنة 2020 حوالي 20.014¹⁶. حسب مشروع المكتب الدولي للمهاجرين حول المهاجرين المختفين-، وتشير الإحصائيات إلى استمرار محاولات العبور غير الشرعي وإن شهد تراجعا خلال سنة 2021 بسبب جائحة كورونا، كما تشير إلى استمرار الوفيات، ويتعلق الأمر بأشخاص يبحثون عن عمل أو تعرف أوطانهم أوضاعا غير مستقرة أو يعانون من الاضطهاد بسبب أفكارهم السياسية. ويخضع مضيق جبل طارق، ومضيق صقلية، ومضيق البوسفور والداردانيل، ومدينتي سبتة ومليلية، وجزيرتي مالطا وقبرص، وبشكل عام جميع مفترقات الطرق الرئيسية في منطقة البحر الأبيض المتوسط لضغط قوي للهجرة غير الشرعية، وإلى جانب هذه التيارات نمت هجرة جنوب- جنوب، نحو دول الخليج بالخصوص، تماشيا مع ارتفاع حاجات هذه الدول إلى اليد العاملة المؤهلة وغير المؤهلة مع طفرة البترول.

¹⁴- اتفاقية شنغن وقعتها 26 دولة أوروبية وتسمح بإلغاء عمليات المراقبة على الحدود بين الدول المشاركة، وتعزيز الرقابة على الحدود الخارجية مع الدول غير الأعضاء في شنغن.

¹⁵- اتفاقيات دبلن: يتعلق الأمر بنظام قانوني وضعه الاتحاد الأوروبي لتنسيق التعامل الموحد في قضايا اللجوء السياسي، وتحديد الدولة العضو المسؤولة عن دراسة طلبات اللاجئين، والإجراءات المنظمة للبت في هذه الطلبات وحقوق وواجبات كلا الطرفين، وقد تم توقيع هذه الاتفاقية في يونيو 1990، وذلك في دبلن عاصمة إيرلندا، ودخلت حيز التنفيذ في شتنبر 1997.

¹⁶ - <https://news.un.org/story>2020/03>

La barre de 20.000 migrants morts en Méditerranée franchie après un ...

2.3.2 البحر الأبيض المتوسط مجال جديد للمرور مع عولمة التدفقات

تعزز عولمة الاقتصاد والنظم فصل العلاقات التقليدية بين دول المغادرة ودول الاستقبال. فقد عبر مهاجرون من الشرق الأوسط منذ مدة طويلة المحيط الأطلسي واستقر عدد كبير من اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين في دول أمريكا الشمالية (كندا والولايات المتحدة الأمريكية)، والجنوبية (فنزويلا والأرجنتين)، ونقف حالياً على تطور مجال الهجرة المغاربية ما وراء المحيط الأطلسي إلى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. يعبر هذا الميول – مع تراجع الارتباط بفرنسا والتوسع في مجموع أوروبا والشرق الأوسط- عن العولمة التي تؤثر على المنطقة المغاربية، كما هو الحال في العديد من المجالات الأخرى.

لقد أصبح حوض البحر الأبيض المتوسط مسرحاً لحركات هجرية كثيرة: فلا أحد يندهش حالياً من حضور مهاجرين فليبينيين في إيطاليا ولبنان والأردن، وأندونيسيين وسيريلانكيين في الأردن، وصينيين في إيطاليا وإسبانيا. تعتبر الهجرة الآسيوية، العمالية والتجارية، إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط إحدى الأوجه الواضحة لعولمة التدفقات والطرق. لقد أصبحت الطرق التي يقطعها المهاجرون الدوليون، السريون بشكل خاص، أكثر طولاً، واتخذت ظاهرة العبور أهمية كبيرة وتضمن بذلك للمهربين أرباحاً هامة، وهي تقوم الهجرة على استغلال الاتجار الحقيقي لليد العاملة والإنسان.

3.3.2 المتروبولات الكبرى والهجرة الأجنبية، الضفة الشمالية والضفة الجنوبية

تستقطب شبكة المتروبولات الاقتصادية والثقافية الكبرى للضفة الشمالية (مريد، برشلونة، توران، ميلانو ونابولي) كفاءات نطاقات تأثيرها الجهوية أو الوطنية، وتجذب دائماً التدفقات الوطنية والدولية، مما يفسر الطابع العالمي الجديد لهذه المدن المتوسطية، ومشهدا البشري، والتنوع المتزايد للحضور الأجنبي. توضح برشلونة - العاصمة التاريخية لكاتالونيا والتي تتميز بشعور قوي بالهوية- حالة هذه الديناميكيات المعقدة لهذه العاصمة، وإعادة التركيب الصعب لنسيجها البشري، ويبرز حضور مهاجرين أجانب من جميع الأصول في نفس الوقت قوة جذب هذه المدينة، والوظيفة الهجرية الجديدة لإسبانيا كمراقب للحدود الجنوبية لمجال شنغن¹⁷، ويعبر الحضور المتنامي للمهاجرين الأفارقة في المدن الكبرى للمغرب العربي (طنجة، الجزائر العاصمة، تونس العاصمة وغيرها) والبحر الأبيض المتوسط الشرقي عن الرغبة في الولوج إلى المجالات الأكثر تصنيعاً، وتعمل تيارات المرور في الموانئ المتوسطية الكبرى ومدن ملتقيات الطرق والبحار حسب منطق عقلاني وتجاري، سري في معظم الأحيان، ولكن يؤدي في معظم الأحيان إلى الطريق المسدود، وحالات من الهشاشة القصوى والمحن بسبب مراقبة الشرطة المحلية أو التطبيق الفعلي للاتفاقيات الدولية، ويدفع تشديد سياسات الدخول والإقامة في الاتحاد

¹⁷ - مجال شنغن منطقة تضم 26 دولة أوروبية، والتي ألغت جواز السفر وضوابط الهجرة على الحدود المشتركة الداخلية بينها، وهي بمثابة دولة واحدة لأغراض السفر الدولي، مع وجود سياسة تأشيرات مشتركة، وسميت بمنطقة شنغن بعد أن تم الانتهاء من اتفاق شنغن.

الأوروبي وإنشاء منطقة شنغن المرشحين للهجرة إلى تبني استراتيجيات جديدة وطرق هجرة معقدة للدخول إلى الفضاء الأوروبي.

يشكل المغرب العربي مجالا للمرور بالنسبة للأفارقة الفرانكفونيين، وتحتضن مدينة طنجة وتونس العاصمة عشرات الآلاف من الأفارقة الذين ينتظرون المرور إلى الضفة الأخرى، وذلك في ظروف عيش أكثر فأكثر هشاشة، وقد عمل المغرب سنة 2013 على تسوية وضعية 50.000 مهاجر من جنوب الصحراء، معظمهم من إفريقيا الغربية ويقدر عدد المهاجرين غير الشرعيين بعدة آلاف، وبذلك أصبح المغرب تدريجيا بلد استقبال بعد أن كان بلد عبور.

وتعتبر إسبانيا وجهة هامة للهجرة غير الشرعية بحيث استقبلت 32.272 مهاجرا سريا من مجموع 74.501 الذين وصلوا إلى أوروبا بين فاتح يناير و9 شتنبر من سنة 2018، مما يجعلها الوجهة الرئيسية للهجرة السرية عبر البحر الأبيض المتوسط، والمثير للانتباه أن المهاجرين لا يبالون بالموت الذي يترتب عنهم في مغامرتهم، إذ اختفى حوالي 1586 شخص حسب أرقام المنظمة الدولية للهجرة¹⁸، ومعظمهم يرغبون في الاستقرار في المدن الكبرى أو يستعملون التراب الإسباني كوسيلة للمرور إلى مدن أوروبية أخرى، وقد قلت محاولات العبور مؤقتا عند بداية جائحة كورونا، بحيث لم يصل إلى إسبانيا بين أواسط مارس وبداية شهر أبريل من سنة 2020 سوى 986 مهاجر مقابل 1295 خلال نفس الفترة من سنة 2019، حسب وزارة الداخلية الإسبانية¹⁹. ولكن المندوبية السامية للاجئين سجلت مع ذلك زيادة هامة بين فاتح يناير وفاتح نونبر 2020 قدرت بـ 11.678 مهاجر مقارنة بنفس الفترة من سنة 2019 (1470 مهاجر)، وينتمي معظم هؤلاء إلى مالي وساحل العاج والسنغال وغينيا والمغرب والكامرون وغامبيا وجزر القمر²⁰.

وتعتبر اسطنبول بتركيا أكثر من أي وقت مضى مكانا اضطراريا للمرور وللإقامة الجبرية بالنسبة للمرشحين المتوسطين والأسويين المهاجرين إلى الغرب (الإيرانيون، الأفغان، السيريلانكيون والأكراد)، عبر الطرق البرية والبحرية والجوية. وعلى الرغم من المراقبة من طرف الشرطة التركية بحيث تسجل كل سنة ما لا يقل عن 100.000 اعتقالات للمهاجرين السريين، فإنه يمكن اختراق هذه الحدود على أبواب الاتحاد الأوروبي.

¹⁸ عبر - مض... > <https://www.dw.com>

عبر مضيق جبل طارق... هكذا انتعشت الهجرة السرية بين المغرب وإسبانيا ...

¹⁹ -Au Maroc, les migrants subsahariens fragilisés par les mesures anti-coronavirus.

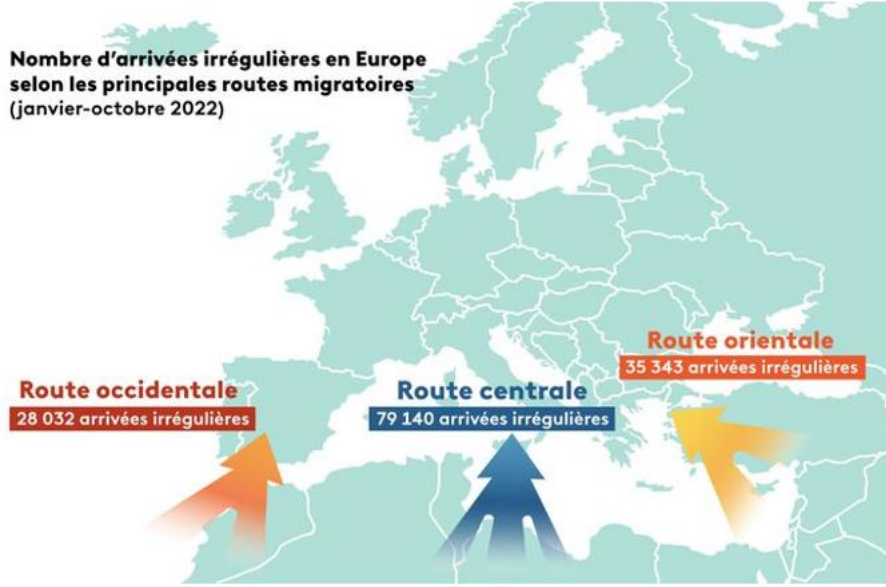
Le Monde avec AFP. Publié le 14 Mai 2020 à 10h 14

www.lemonde.fr Afrique> Diaspora.

²⁰ - <https://www.forumrefugies.org>>80...

L'évolution des routes migratoires vers l'Espagne- Forum Réfugiés

المسارات الثلاث التي تتركز بها الهجرة غير الشرعية بحوض البحر الأبيض المتوسط



المصدر: Frontex, Ministère espagnol de l'Intérieur (via Commission européenne)

4.3.2 الهجرة كجواب لعدم التكافؤ بين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية والشرقية

أصبحت الهجرة ظاهرة عالمية تحركها دوافع متعددة، وإذا اعتبرت العديد من الدول كصمام الأمان نظرا لتفشي البطالة، فإنها تُعد مكسبا هاما عندما ترافقها تحويلات مالية تخفف من حدة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية.

□ الهجرة إلى الخارج: دوافع اقتصادية بالأساس ومكاسب وخسارات كثيرة

تفسر الهجرات خطورة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية لدول المغادرة، والصعوبات التي تجدها حكومات الدول الغنية في الشمال في استيعاب الوافدين أو توقيف الهجرة بشكل كلي. يقوي السياق الديمغرافي المعاصر بشكل بنيوي التدفقات، بما أن الشيخوخة السريعة للأوروبيين، خاصة في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا، يقابلها الانفجار الديمغرافي في الضفة الجنوبية والشرقية التي تعرف نموا قويا على الرغم من التراجع السريع، بل العام للخصوبة، إذ تعرف دول جنوب وشرق البحر الأبيض المتوسط سنويا - رغم تسارع الانتقال الديمغرافي- عدة ملايين من السكان الإضافيين، وتعتبر الهجرة إلى الخارج في معظم الأحيان وسيلة لتلبية الحاجات الضرورية للإنسان: فهي توفر الأكل والسكن والتطبيب والإمكانيات المادية لتعليم الأطفال، كما تمكن من مواجهة ما هو غير متوقع.

تأتي العوامل الاقتصادية في صدارة العوامل الحالية للهجرة إلى دول الاتحاد الأوروبي، إذ تحفز قلة الموارد والصعوبات المالية للأسر على المغادرة أكثر من عدم وجود الشغل المناسب، ولكن الطلب على التعليم يلعب هو الآخر دورا هاما.

يبدو أن اللجوء إلى الهجرة الدولية هو البديل الوحيد بالنسبة لعدد كبير من الأشخاص والمتعلمين المغادرين من الأوساط الحضرية حيث يعيش معظم سكان دول جنوب وشرق البحر الأبيض المتوسط، يتم ذلك رغم أن الهجرة الدولية تكلف كثيرا، خاصة إذا تعلق الأمر بالهجرة غير الشرعية.

تستفيد دول المغادرة من موارد أبنائها الذين يعملون في الخارج. وإذا أصبحت بعض الدول، كما هو الحال بالنسبة لتونس، أقل تبعية لمداحيل الهجرة مقارنة بالسبعينات والثمانينيات من القرن الماضي، فإن تحويلات المغاربة بالخارج تعتبر مكونا رئيسيا في الناتج الداخلي الخام للبلد لدرجة أن المغرب اعتبر ثالث دولة في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (6,4 مليار دولار أي ما يساوي 62 مليار درهم) بعد مصر (19,7 مليار دولار)، ولبنان (7,2 مليار دولار) على مستوى التحويلات المالية من الخارج، وتشير الأبحاث إلى أن ما بين 85 و 90% من التحويلات نحو المغرب تأتي من دول الاتحاد الأوروبي، وقد ارتفع حجمها بحيث بلغت 6,88 مليار دولار في فاتح يونيو 2017، أي ما يعادل 65,4 مليار درهم، وإلى جانب هذا الرقم هناك مصادر لا يتم حسابها (هدايا، نقل الأموال بطريقة غير قانونية، دفع أموال في عين المكان و....)

تسهم تحويلات الجاليات في الخارج في تحسين الوضع الاقتصادي للدول وظروف عيش الأسر المستقبلية، وبالنسبة للمغرب فإن التحويلات تشكل إحدى ركائز الاقتصاد، ولكنه – أي المغرب – لا يمكن أن يعتمد إلى ما لا نهاية على هذه التحويلات: فقد بين التاريخ أن عددا من الهجرات في أوروبا (إيطاليا، إسبانيا والبرتغال والجزائر) قلت، كما تراجعت تحويلاتها المالية إلى البلد الأصل مع مرور الوقت، وهو احتمال يجب أخذه بعين الاعتبار ويفرض على الدول التي تعتمد على هذه التحويلات المالية أن تعمل على تنويع اقتصادها.

□ من هجرة اليد العاملة غير المؤهلة إلى هجرة الكفاءات

تظل اليد العاملة التي تهجر قليلة الكفاءة، ولكن أصبحنا نقف منذ بضع سنوات على هجرة عدد كبير من الكفاءات من دول الضفة الجنوبية، وهي حالة المهندسين وعلماء الحاسوب اللبنانيين الذين يهاجرون إلى أوروبا، تصدر مصر وتونس أيضا أطرها وأساتذتها، كما أن المغرب يفقد بشكل كبير أطره بحيث تشير بعض المصادر إلى أن ما لا يقل عن 8000 شخص حاصل على شهادة التعليم العالي - من كل المسالك التي تنتمي إلى التعليم العام والخاص- يغادرون المغرب كل سنة، وذلك بعد العمل لفترة وجيزة في المغرب، وضمن هذا العدد نجد 600 مهندس، أي ما يعادل عدد الحاصلين كل سنة على الشهادات من المدارس العليا المغربية التي تسلم شهادات للمهندسين²¹، ويضاف إلى هذه الأطر 1200 من

²¹ - Actu maroc.com OÙ sont les cerveaux marocains- Actu- Maroc- Juillet -26.2018
www.actu.maroc.com/ou-sont-les-cerveaux-marocains/

رجال الأعمال، ويظهر أن أكثر من 7000 طبيب مغربي يوجدون في فرنسا وأن المهندسين يعدون بالآلاف²²، كما أن 38.000 طالب مغربي يعيشون في فرنسا، حيث معظمهم لن يرجعوا إلى المغرب²³، كما أن 80% من خريجي السنوات الأخيرة من المدرسة الوطنية العليا للمعلومات وتحليل النظم (l'ENSIAS) في الرباط تم توظيفهم من طرف شركات أوروبية، ويتم هذا الضياع بالنسبة للاقتصاد المغربي لصالح مقاولات أجنبية تستقطب في بعض الأحيان أصحاب الشهادات بطرق ملتوية، وقد تستقطبهم أثناء دراستهم، وأحيانا أخرى بعد تخرجهم وتسلمهم الشهادات، ويظهر أن نسبة كبيرة من الكفاءات المغربية في الخارج يتراوح سنهما بين 25 و 34 سنة، غالبيتهم ذكور غير متزوجين. أما الدوافع التي تجعل الكفاءات المغربية تستقر في الخارج أو تغادر البلاد فيأتي على رأسها الرغبة في اكتساب تجربة مهنية، إغناء التجربة الشخصية والبحث عن فرص عمل أفضل، هذا بالإضافة إلى الاستفادة من التغطية الصحية، وتأتي فرنسا في مقدمة هذه الدول، وتليها كندا، ثم الإمارات العربية المتحدة²⁴، وتُختار هذه الأطر لتخصصها في مهن ذات قيمة مضافة عالية²⁵، وبالأخص المعلومات والتكنولوجيات الجديدة. تعبر الهجرة عن طلب اقتصادي قوي موجه للبلدان الأصل (طلب للعمل)، تعبر أيضا عن النقص في المجالات التربوية والصحية والاجتماعية والاقتصادية التي تدفع نوعا ما إلى الهجرة إلى الخارج، وهي أمور تحاول الدول بالصفة الجنوبية والشرقية حلها قدر الإمكان، إلا أنها تصطدم بأهمية وكثرة الأوراش، وأهمية الفئات الصغيرة السن والسكنة النشيطة بينما إمكانياتها تظل جد محدودة.

□ تسمح هجرة النخب لدول المستقبل بتحقيق أرباح كثيرة تتمثل في:

١- اقتصاد تكاليف التكوين الأولي: ذلك أن الدولة المستقبلة تحصل على كفاءات لم تدفع من أجلها ولو فلسا واحدا، فهي تحصد نتائج تكوين تحملته دولة وأسر أخرى، كما أنها تستقبل شبابا في عز النشاط يساهمون في اقتصادها؛

٢- الحصول على يد عاملة قليلة المطالب: يتقاضى المهندسون الأجانب في فرنسا وألمانيا وسويسرا والسويد أجورا تقل عن أجور المهندسين المحليين في نفس التخصص.

²² -Aujourd'hui le Maroc . ESSABBAN D., 2018, Fuite des cerveaux : l'élite doit s'atteler à les répertorier Aujourd'hui le Maroc, Septembre 11, 2018.

[https:// aujourd'hui.ma/emploi/fuite-de-cerveaux-lelite-doit-satteler-a-les- répertorier.](https://aujourd'hui.ma/emploi/fuite-de-cerveaux-lelite-doit-satteler-a-les-repertorier)

²³ - Ibidem

²⁴ - <https://www.cfcim.org>magasine> Fuite des cerveaux : un constat alarmant- Chambre française de... , Par Dounia Z. MSEFFER, 2 mai 2019, Rubrique : Zoom

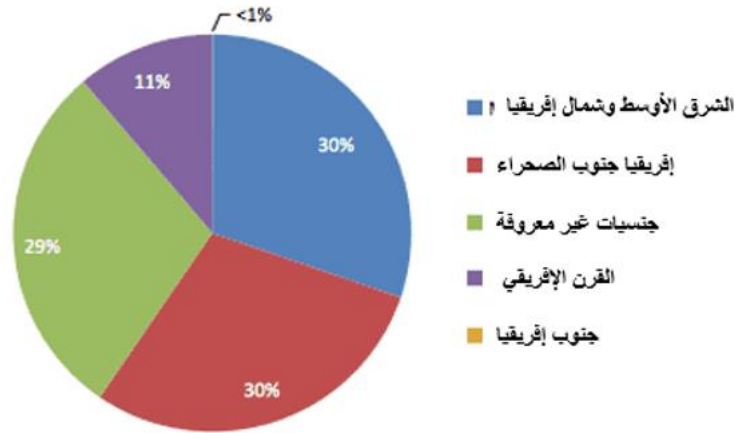
²⁵ -Actu- maroc. Com Où sont les cerveaux marocains ? Actu- Maroc- Juillet 26.2018, op.cit

□ تتسبب هجرة الكفاءات في خسارات كثيرة لدول المغادرة

تشكل هذه الهجرة خسارة بالنسبة لدول المغادرة التي لا تسترجع تكلفة التكوين الأصلي، ويتعلق الأمر بضياغ في تكلفة التكوين بالنسبة للدول: فعلى مستوى المغرب على سبيل المثال، يتخرج كل سنة مئات المهندسين، وهذا العدد لا يغطي حاجات البلاد (8000 مهندس سنويا)، وترتفع كلفة تكوين مهندس واحد خلال الخمس سنوات من التكوين في المدرسة الوطنية للبريد والاتصالات إلى حوالي مليون درهم، ويتعلق الأمر بمدفوعات مالية على مستوى التربية والتعليم (مدفوعات الموارد البشرية، وتشكل أجورها قسما هاما من المدفوعات العامة في الوظيفة العمومية المغربية)، هذا وتفقد دول المغادرة بسبب هجرة النخب أجمع العناصر التي تسهم في التنمية الاقتصادية: ففي المغرب- على سبيل المثال- تمس الظاهرة أيضا وبشكل كبير قطاع الصحة، وهو مهدد بأن يعاني أكثر.

يؤهل تكوين هذه الفئات لشغل قطاعات هامة في بلدانها والحصول على أجور مرتفعة من شأنها أن تسهم في تحريك الاقتصاد، ومن جهة أخرى فإن هذه الدول تفقد جزءا من المداخل التي يمكن أن تخضع للضريبة ويعاد توزيعها، وبالتالي فهي لا تستفيد من الاستثمار في تعليم وتكوين هذه الفئة من أبنائها، وهذا ما حدا بدولة كالمغرب إلى السعي لتوظيف مهندسين أجانب أوروبيين وأفارقة، وذلك لمواجهة النقص الحاصل في قطاع التكنولوجيا الجديدة، خاصة في قطاع الرقمية والإعلام. ومع ذلك فإن المغرب مطالب بتشجيع كفاءاته على العودة إلى الوطن بتوفير ظروف جيدة للعمل وبأجور مشجعة.

الجنسيات الأصلية للمهاجرين الغارقين بالبحر الأبيض المتوسط ما بين يناير وشتبر 2014



المصدر : Conseil européen 2014

4.2 مستقبل الوضع الديمغرافي بدول حوض البحر الأبيض المتوسط

يسمح تتبع التطور الديمغرافي لسكان دول حوض البحر الأبيض المتوسط بفهم الاختلافات في معدل نمو سكانها والتنبؤ بالمستقبل، إذ يرتقب أن تحصل زيادة بنسبة 21,5% سنة 2050 مقارنة بسنة 2014، مع اختلافات بين الضفة الشمالية والضفة الجنوبية والشرقية: فإذا كانت ساكنة جميع الدول الأوروبية المظلة على البحر الأبيض المتوسط في سنة 1950 تفوق ساكنة الدول الجنوبية والشرقية بأكثر من مرتين (150 مليون نسمة مقابل 72 مليون نسمة)، ففي سنة 2014 سجلت على التوالي: 199.499.808 و 286.879.248²⁶ مليون نسمة على الضفة الجنوبية والشرقية، أي أن ساكنة هذه الأخيرة تضاعفت بأكثر من 3,8 مرات في ظرف تقريبا 65 سنة، ومن المتوقع أن يرتفع عددها في العشرية القادمة ليتعدى 395.000.000 مليون نسمة في سنة 2050 إذا ظل النمو الطبيعي قارا .

جدول رقم 4: توقعات ساكنة دول حوض البحر الأبيض المتوسط لسنة 2050

السنة	2014	2050
الضفة الأوروبية	198.639.808	193.900.000
ضفة آسيا الغربية	107.128.418	121.6000.00
إفريقيا الشمالية	180.610.830	275.500.000
المجموع	486.379.056	591.000.000

تبعث الإسقاطات الديمغرافية، على القلق: ففي مصر مثلا تضاعفت الساكنة بأكثر من 60 مرة بين 1850 و2014، مع إسقاطات كانت بحوالي 95 إلى 97 مليون نسمة سنة 2025، وقد تعدتها سنة 2021 بحيث بلغ عدد السكان بهذا البلد 100.878.000 نسمة²⁷، ويرتقب أن يرتفع إلى ما يزيد عن 157.000.000 نسمة سنة 2050.

إن الوضع الديمغرافي غير مريح في العديد من الدول في الشمال بسبب الزيادة الطبيعية السلبية أو الضعيفة، وتناقص عدد النساء في سن الإنجاب، ولولا رصيد هجري إيجابي لتراجعت ساكنة إيطاليا وإسبانيا بشكل أكبر، ومن المرتقب أن يستمر التراجع أيضا بالنسبة لألبانيا وسلوفينيا وكرواتيا، وستحتفظ

²⁶ - تم إدماج تركيا في المجموعة الجنوبية والشرقية.

²⁷ - <https://fr.countryeconomy.com>pays>
Égypte 2021| countryeconomy.com

مالطا بنمو مستقر بسبب التقاليد بها، في حين ستعرف فرنسا زيادة سكانية بفضل استمرار الولادات في بعض المناطق، بالإضافة إلى الهجرة الوافدة. أما الدول على الضفة الجنوبية والشرقية فستعرف زيادة في السكان باعتبار أن معظمها لم يُنْهَ بَعْدُ الانتقال الديموغرافي: فتونس توجد في نهاية المرحلة الثانية من الانتقال الديموغرافي، وهو ما يفسر الارتفاع القليل المرتقب للسكان وبوادر الاتساع النسبي للشريحة من 65 سنة فما فوق. أما لبنان والمغرب وتركيا فتعيش بداية نهاية هذه المرحلة، وتُرتَّب بعدها الجزائر التي لا زالت تعرف معدل نمو سكاني بمستوى 2%، وستعرف زيادة تتعدى 57 % سنة 2050 إذا ظل معدل نمو ساكنتها قاراً بينما مصر تعيش ضد الانتقالية الديموغرافية بحيث يرتقب أن تعرف زيادة سكانية تتعدى 70%، هذا ويتوقع أن تمثل الفئة الأقل من 15 سنة 43% من ساكنة قطاع غزة سنة 2025، كما يتوقع أن تتضاعف ساكنة فلسطين بأكثر من 1,8 مرة في سنة 2050.